وحي الألفاظ

الأستاذ شفيق جبري

في رحلة ابن بطوطة ألفاظ كثيرة تتعلق بالمآكل والمشارب والملابس والمراكب والعمران والألقاب وغير ذلك من مظاهر الحياة ، وقد فسّر ابن بطوطة نفسه طائفة من هذه الألفاظ بحسب دلالتها في بلاد الأعاجم التي شاعت فيها ، وانتخب الدكتور سليم النعيمي ألفاظاً من هذه الرحلة تكلم عليها في مجلة المجمع العلمي العراقي في مقالات متسلسلة عنوانها : ألفاظ في رحلة ابن بطوطة ، ولا شك في أنه يستحق الثناء على عمله .

إنا نمرُّ بكثير من ألفاظ الرحلة قد نفتقر إلى معرفة معانيها لأنها استفاضت في بلاد أهلها أعاجم ، فإذا لم نقف على معاني هذه الألفاظ فقد يفوتنا كثير من مظاهر الحياة في البلاد التي رحل إليها ابن بطوطة وما أكثر هذه البلاد . وحسبي الإشارة إلى جملة منها ، فقد رحل إلى الأناضول وخوارزم وخراسان والهند والسند والصين ومقديشو وجزائر مالديف وغيرها مما لا حاجة بنا إلى إحصائه . إن رحلة ابن بطوطة تختلف في هذا المعنى عن رحلة ابن جبير ، فابن جبير لم يرد في رحلته ذكر بلاد الأعاجم التي

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورد ذكرها في رحلة ابن بطوطة ، ومن أجل ذلك لا تشتد حاجتنا إلى تفسير ألفاظ رحلته .

لست أرمي في مقالي هذا إلى الكلام على الألفاظ التي جاءت في رحلة ابن بطوطة ولا إلى الكلام على تفسيرها سواء أتولى هذا التفسير ابن بطوطة أم تولاه الدكتور النعيمي ، ولكن غرضي الاشارة إلى ألفاظ قليلة وردت في رحلة ابن بطوطة وشاعت في دمشق سواء أكانت هذه الألفاظ عربية أم كانت أعجمية ، فهي تحيي في أذهاننا بعض الصور في ماضي دمشق القريب ، إنها تدل على مسميات قد اختفت أو كادت مما له صلة بزينة البيوت أو بالملابس أو بالمراكب أو ببعض أنماط العيشة ، ولا ريب في أن إحياء هذه الصور يدخل السرور على قلوبنا لأنا نحب أن نعرف كيف كانت الحياة في دمشق أو كيف كان جزء من أشكال هذه الحياة.

إني لا أشير إلى الألفاظ التي شاعت في بلاد الأعاجم ولم يصل شيوعها إلى بلادنا لأني لا أرى في هذه الإشارة فائدة ، فالقارىء يستطيع أن يرجع إلى رحلة ابن بطوطة ويقف على بعض الألفاظ المتصلة بالأكل والشرب واللبس وما ماثل ذلك ، وإني لأكتفي بذكر ألفاظ قليلة استعملناها في لغتنا العامة في دمشق .

فلنشرع في ذكر ألفاظ تصور لنا زينة البيوت في داخلها . من هذه الألفاظ : القاشاني والصيني . فمن كلام ابن بطوطة في حديثه عن المسجد الجامع بتبريز : « وصحنه مفروش بالمرمر ، وحيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج » وأضاف الدكتور النعيمي إلى كلام ابن بطوطة ما يلي : معرَّب كاشاني نسبة إلى كاشان من مدن العراق العجمي قرب أصبهان

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

ولعله من مصنوعاتها ، ويقال إنه في الفـارسية مشتق من كاش أو كاج بالجيم المعقودة ، بمعنى الزجاج لأن القاشاني مربعات من الخزف المموّه وهو مختلف الألوان .

فالذي يعنينا من كل ذلك أن لفظة : القاشاني شائعة في دمشق والناس يقولون : القيشاني ، وعلى مقربـة من سوق الحرير : حمّام « القيشاني » وقد حوّل إلى مخازن ولم يبق أثر من الحمّام ، فالقاشاني أو « القيشاني » كنا نجده في بعض بيوت دمشق القديمة في مربّعاتها أو قصورها أو قاعاتها ، والقصر في البيت يطلق على الغرفة العالية التي يقضى فيهـا فصل الشتاء . فالفائدة في هذه اللفظة أنها تدلنا على طراز من زينة الحيطـان في بعض بيوتنا القديمة ، أما اليوم فلا نرى في عمراننا الحديث أثراً للقاشاني ، فالعمران من صفاته البساطة وقلة التكاليف ، فمن الذي في أيامنا يبني بيتاً ويفرش حيطانه بالقاشاني على الرغم من حسن هذا الفرش وهذه الزينة . وهكذا نجد أن لفظة القاشاني التي شاعت في لغتنا العامة تدلنا على شكل من زينة الحيطان لم يبق له أثر ، وقد استطعنا أن نعرف أصل هذه المادة ومن أين جاءت إلينا .

وقريب من لفظة القاشاني لفظة : الصيني . قال ابن بطوطة : « ومررت ببعض أزقة دمشق فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت منه صحفة من الفخار الصيني » . فالذي يهمنا من هذه العبارة لفظـة : الصيني . إنها تحيي لنا صورة من صور الأثاث في بعض بيوت دمشق القديمة ، فالأغنياء من أصحاب هذه البيوت كانوا يقتنون ما نسميه : الزبادي الصينية والصحون الصينية وكانوا يضعونها في القاعات ويحرصون عليها لقيمتها وحسنها ، وكانوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

يفاخرون بها . أما اليوم فلا تقع عيوننا في البيوت على شيء من الزبادي الصينية أو الصحون الصينية . وهكذا نرى أن اللغة إنما هي صورة الحياة .

وما دمنا نذكر القاشاني والصيني في بيوتنا القديمة فلا بأس أن نمكث قليلاً في هذه البيوت لنرى فيها طراز المؤنة : قال ابن بطوطة في حديثه عن ملكة كيلكرى : « وأمرت لي بأثواب وأربعة مرطبانات وهي أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون » . وأضاف الدكتور النعيمي إلى كلام ابن بطوطة ما يلي : وكان المرطبان معروفاً في بغداد وهو إناء ضخم ، مفرطح بعض الشيء يتخذ للطعام ويصنع من النحاس ، وفي المعاجم الفارسية : مرتبان ، وهو إناء من الخزف تحفظ فيه الأدوية والمربيات أو الأفاويه أو الخبز .

فالذي يعنينا من كل ما ذكره ابن بطوطة أو ما ذكره الدكتور النعيمي من وصف المرطبان أن المرطبان معروف في بيوت دمشق بهذه الصفة نفسها ، ولكن الذي نعلمه أنه يصنع من الزجاج . إني لا أهتم بهذه اللفظة إلا بمقدار ما لها صلة بطراز حياتنا في بيوتنا القديمة .

فقد كان لنا في الماضي طراز خاص في مؤنة البيت ، فقد كان في معظم البيوت بيت اسمه : بيت المؤنة ، يخزن فيه السمن والزيت والدبس والخل والأرز والبرغل والسكر وما يتبع ذلك من المؤنة حتى لقد كان في البيوت مخزن للقمح اسمه : كندوش ، يخزن فيه القمح ويؤخذ منه من حين إلى آخر مقدار للطحن ثم يعجن الطحين ويرسل إلى الفرن للخبز ، لقد وردت هذه اللفظة في معجم الفيروز ابادي بالجيم : كَنْدُوج وجاء في تفسيرها : الكندوج شبه المخزن معرّب كندو وكندجة الباني في الجدران

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والطيقان : مولّدة . لقد بطل كل هذا في أيامنا ، فأغلب البيوت في العمران الحديث خال من بيت المؤنة ، فأي بيت يحتوي اليوم على كندوش أو كندوج للقمح . فما أطرف الصورة التي أحيتها لنا لفظة : المرطبان .

وهل علينا من حرج إذا انتقلنا من زينة البيوت ومؤنتها إلى قليل مما له بعض الصلة بالثياب . قال ابن بطوطة في حديث عن وزير جزيرة ذيب المهل : « جاء الوزير إليّ بعد العشاء ومعه غلامان .. فألقى إليّ أحد الغلامين بين يديه لفشة (بقشة) وهي شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحُقّاً فيه جوهر فأعطاني ذلك » . وأضاف الدكتور النعيمي : إن البقشة هي بالفارسية : بقجة ونقل عن « دوزي » أن الكلمة تركية وهي معروفة بهذا الاسم في بغداد الآن ويطلقونها على قطعة من القماش مربعة ومبطنة وتوضع فيها الملابس وتشد من أطرافها الأربعة .

لسنا نُعنى الآن بأصل هذه المادة ولكن الذي يعنينا من أمرها أنها مستعملة في دمشق بالمعنى نفسه ، وهذه المادة تدلنا على طورٍ من أطوار حقائبنا في الماضي فما كانت حقائب الجلد « الشناتي » مستعملة وإذا كان الناس إذا سافروا أو انتقلوا من محلٍ إلى محل يضمون ثيابهم في البقجة أما الآن فنكاد لا نرى بقجة لمسافر في سيارة أو طيارة أو قطار فالثياب توضع اليوم في حقائب من جلد « الشناتي » .

ومن ذكريات البقجة في دمشق أن الناس في أعراسهم كانوا ينقلون جهاز العروس من بيت العريس إلى بيت العروس على الرؤوس والأيدي ويطوفون بهذا الجهاز على أقدامهم في الأسواق والحارات حتى يصلوا إلى بيت العروس وكان الجهاز يشتمل على بُقجٍ مطرّزة ، وإذا كان الجهاز ثميناً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الناس فيه إنه جهاز ثقيل ، هذه هي اللفظة التي كانوا يستعملونها في الدلالة على محاسن الجهاز ، وكل هذا قد بطل في يومنا فلا يطاف بجهاز في الأسواق والحارات ولا توضع الملابس في البقج .

ومن الألفاظ التي جاءت في رحلة ابن بطوطة وهي تدلنا على نوع من الملابس في ماضي دمشق لفظة : السمّور ، فقد قال ابن بطوطة في حديثه عن أرض الظلمة : « فإذا كان من الغد عادوا » المسافرون « لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمّور والسنجاب » ففروة السمّور كانت من ملابس أهل دمشق في الشتاء ، كان يلبسها الأغنياء وقد يلبسها بعض النساء ، وهذا النوع من اللباس كانوا يتباهون به ولكنه اليوم قد بطل أو كاد فلا نجد من يلبس فروة السمّور في الشتاء . فكما يبطل نوع من الزينة في البيوت فقد يبطل نوع آخر من اللباس طبقاً لأطوار الحياة .

ومن هذه الأنواع التي قل استعمالها : الكمر ، قال ابن بطوطة في حديثه عن مدينة جرون ، بفتح الجيم والراء وآخرها نون وهي قاعدة جزيرة هرمز الجديدة : « ولقيت بهذه المدينة الشيخ صالح السائح أبا الحسن الأنصراني وأصله من بلاد الروم فأضافني وزارني وألبسني ثوباً وأعطاني كمر الصحبة » . فالكمر ومعناها الحزام مستعملة في دمشق وهي غير عربية ، وما يهمنا أن تكون فارسية أو غير ذلك ، إنما الذي يهمنا أن الكمر كان من بعض ملابس الناس في دمشق ، وهو حزام يشدونه على أوساطهم وفي بعض الحالات كانوا يحفظون فيه ليرات ذهبية إذا ذهبوا من دمشق إلى بلد آخر من باب الحيطة ، وهو نوع من اللباس قليلاً ما يستعمل اليوم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وآخر ما أريد ذكره من هذا النمط لفظة : الفوطـة ، فمن كلام ابن بطوطة في حديثه عن أهل مقديشو : « وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خزّ يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فإنهم لا يعرفونها » فالفوطة لا تزال شائعة في لغتنا العامة في دمشق فنحن نقول : فوطة الحمّام ، وهي على نحو ما قال ابن بطوطة يشدها الإنسان في وسطه ، فهذه اللفظة تذكّرنا حمامات دمشق في الماضي ، وقد اختفى معظم الحمامـات المشهورة وبقي قسم منها في بعض الحارات لأن البيوت الحديثة فيها حمّامات يستحم فيها أصحاب هذه البيوت ، أما في الماضي القريب فقد كان لكل حي من أحياء دمشق حمام بوجه التقريب يقصده الرجال في الصباح والنساء بعد الظهر ، وحمّامات النساء فيها عادات خاصة ، فقد كان النساء يجلبن معهن إلى الحمام بعض المآكل فلا يقتصرن على الاستحمام وحده ولكنهن كن يقطعن الأوقات في الأكل والانبساط من الظهر إلى المغرب حتى وإلى العشاء وهكذا ذكرتنا الفوطة بحماماتنا التي كادت تختفي آثارها .

وأحب أن أختم هذا المقال بلفظة : المحارة الدالة على موكب الحج في دمشق ، ذكرها ابن بطوطة في حديثه عن بغداد قاصداً الحج ، قال : وقصدت أميرها فعيّن لي شقة محارة ، وقال : ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمّالاً واشتريت محارة ، وقال الدكتور النعيمي : وفي القاموس : المحارة هي شبه « الهودج » فهذه المادة عربيـة فهي لا تشبه بعض ما مرّ بنا من الألفاظ الأعجمية . إن لفظة المحارة تذكرنا موسم الحج في دمشق من سبعين سنة . فقد كان لهذا الموسم يوم مشهود يخرج فيه باشا الحج على فرسه ويصطف فيه الناس من السنجقـدار إلى آخر حي

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
مجمع اللغة العربية

الميدان على سبيل الفرجة ، فالنساء على سطوح البيوت والدكاكين حتى إذا وصل الموكب إلى آخر الميدان ، إلى العالي ، انتهت الفرجة ورجع كل واحد إلى عمله ، فالمحارة وهي شبه الهودج من ألفاظ الحج ، كان يجلس فيها الحجاج على ظهر الجمل ، فلا سيارات ولا طائرات وإنما جمال تقطع المسافة الشاقة بين دمشق والحجاز في أيام وليال طويلة .

أفرأينا كيف انتقلت الحياة من طور إلى طور وكيف أن الألفاظ التي تصور لنا هذه الأطوار أصبحت مخزونة في أذهاننا لا تدلنا إلا على ذكريات خلت . فلننعم بوحيها !.

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net